المحاضرة الثالثة عشرة

هل كان المتنبي شعوبياً

- ٥ -

نفيهم عنه التعصب لوطنه - نفيهم عنه التعصب لقومه

« نقد الشاعر من ناحية واحدة »

هيأت الكلام على ابتداء امر المتنبي ، وعلى اول تربيته وثقافته ، وعلى رقة حاله وجملة اخباره ، ووصف طبائعه ، واعددته لأحاضر به في هذا اليوم الا ان المقام اقتضى ان اعود على ما بدأت به من الكلام على تعصب المتنبي للعرب والعروبة ، وعلى حنينه الى وطنه واضطرابه في هذا الحنين لاني وجدت بعض المؤلفين في هذا العصر ممن عملوا كتاباً على حدة في ابي الطيب المتنبيء ينفون عن ابي الطيب تعصبه لقومه ، وتعصبه لبلد ، ملقين الكلام على عواهنه دون شيء من التمحيص . أما نفيهم عنه التعصب للوطن ، فقد استندوا فيه الى طائفة من الابيات التي رويتها لكم واشرت فيها الى اضطراب المتنبيء في حنينه الى تربته منها :

وما بلد الانسان غير الموافق ولا اهله الادنون غير الاصادق

ومنها وكل امريء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

واضافوا اليها أبياتاً غيرها من جملتها :

غني عن الاوطان لا يستخفني الى بلد سافرت عنه اياب

ومنها : في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من اختها بدل

على ان البيت الذي جاء قبل هذا البيت وهو :

اذا صديق نكرت جانبه لم تعيني في فراقه الحيل

يدل على ان اباالطيب اذا حدثته نفسه بالاضطراب في سعة الخافقين فانما ذهب هذا المذهب لانكاره جانب الصديق ولم يذهبه لانكاره جانب الوطن نفسه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذكروا هذه الابيات كلها ، وقارنوا بينها وبين الابيات الآتية التي يقولها اصحابها في حنينهم الى بلادهم والى قومهم :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة وقومي وان ضنوا عليّ كرام

او كقول المعري :

فلا هطلت علي ولا بارض سحائب ليس تنتظم البلادا

فحكموا على المتنبي انه لا يتعصب لبلده ، ورموه بضعف الخلق ، وشبهوه بالطفل الذي يمد يديه الى الخير ، لا يبالي اين وجده وكيف التقطه . —

واما نفيهم عنه التعصب لقومه ، فانهم لم يذكروا الابيات التي استندوا اليها في هذا النفي ، ولكنهم اشاروا الى مدائح ابي الطيب في عضد الدولة وفي كافور وعجبوا من المتنبيء كيف يمدح الاعاجم بعد قوله :

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

كيف يمدح ابو الطيب عضد الدولة ، وكيف يذكر في شعره اسمه ولقبه ويقول :

وقد رأيت الملوك قاطبة وسرت حتى رأيت مولاها

اباشجاع بفارس عضدالدو لة فنّا خسرو شهنشاها

نعم عجبوا من هذا كله ، فحكموا على المتنبي انه مجرد من التعصب للعرب ولبلاد العرب فكأنهم يقولون فيه انه شعوبي ، وان هم لم يصرحوا بهذه الصفة ، فلننظر في مبلغ هذا العجب ومقدار هذا الحكم ، أفكانوا مصيبين في هذا الحكم ام كانوا مخطئين فيه ، أفصدر حكمهم بعد ان نظروا الى ابي الطيب من جميع النواحي ، ام صدر الحكم وهم لم ينظروا الى المتنبيء الا من ناحية واحدة ، فلا بأس بان يكون الدرس في هذا اليوم ضرباً من النقد :

الغريب انهم اذا نقدوا شعر شاعر ، وصوبوا النظر وصعدوه في بواطن هذا الشاعر وفي ظواهره ، نظروا اليه من طرف واحد . فمنهم من ينظر اليه من الناحية التي يظنها ناحية المحاسن ، ومنهم من ينظر اليه من الناحية التي يحسبها ناحية المساوئ ، وفي هذين المذهبين اشتطاط في الرأي وذهاب مع الهوى . وانقياد للعاطفة ، وضعف في النظر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما ينبغي للناقد ان يكون خاضعاً لسلطان الهوى ، ما ينبغي للعين ان يخفى عليها الضياء فلا ترى الا الظلام ، فأنهم اذا ذهبوا في النقد هذه المذاهب ، وساروا هذه السيرة ضاعت الحسنات ، حتى انهم ليعظمون العورات في بعض الاحيان و يتعقبونها فيمرون بالحسنات الرائعة والى جنبها سيئة خفية فيغضون على الروائع ويتهامسون بالعورات وما هذا من النقد في شيء ، واذا الناقد لم ينظر الى الشاعر من جميع الوجوه من وجه الحسنات ومن وجه السيئات على السواء لم يكن نقده نقداً ولا تمييزه تمييزاً ، اذا هو نظر اليه من طرف واحد وحكّم الهوى في نظره كان نقده مثلوم الجوانب .

جردوا ابا الطيب من كل عاطفة وطنية ومن كل نزعة قومية واعتمدوا في تجريدهم هذا على الابيات التي رويتها لكم فلننظر في حكمهم على ابي الطيب من الناحية الوطنية ، والمراد بالوطنية في هذا المقام الحنين الى الوطن ، لا ريب في ان ابا الطيب لم يثبت على حال في شوقه الى تربته ، وقد بينت اضطرابه في هذا الحنين فلا أجد حاجة الى الرجوع اليه . وقد يكون لهذا الاضطراب اسباب شتى : منها ان ابا الطيب لم يستقر في وطنه منذ نشأ وترعرع حتى قتل ، فمن بادية العراق الى بادية الشام ، ومن اللاذقية الى انطاكية الى حلب ، ومن حمص الى دمشق ومن دمشق الى طبريا الى الرملة ومن فلسطين الى مصر ومن مصر الى العراق ، ومن العراق الى بلاد فارس ، فهو لم يقم بوطنه فلم تألف عينه هذا الوطن ، ومنها ان النفس تعرض لها في بعض الساعات عوارض فتذهل عن كل شيء في الدنيا حتى انها لتكاد تعاف الحياة والمتنبي عصبي المزاج فكان تعرض له هذه العوارض من ألم في النفس وضيق في الصدر كما تعرض لكل واحد منا وما قولكم في شاعر يترك بلاد الشام و يذهب الى مصر فيخلي له كافور داراً و يخلع عليه و يحمل اليه آلافاً من الدراهم فيستقبله المتنبي بهذا الشعر :

كفى بك داءً ان ترى الموت شافياً وحسب المنايا ان يكن امانيا

ما قولكم في شاعر يتمنى الموت وهو في بحبوحة من العيش وسعة من الامل أفيكثر عليه ان يعاف بلده في بعض الساعات اذا كان يعاف حياته ، على ان ابا الطيب لم يجرد من العاطفة الوطنية كل التجريد ، فانه اذا اضطرب وقال :

غني عن الأوطان لا يستخفني الى بلد سافرت عنه اياب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هدأ بعد مضطربه وقال وهو في بلاد فارس بين يدي ملك عجمي :

أحب حمص الى خنـاصرة وكل نفس تحب محياها
وصفت فيها مصيف بادية شتوت بالصحصحان مشتاها

وان الذي يقول : وكل نفس تحب محياها ، او يقول : أحن الى اهلي واهوى لقاءهم ، لا يرمي بمقة الوطن فكان ابوالطيب يضطرب في بعض الاحوال ثم يهدأ فيصفو خاطره و يروق ذهنه فيذكر اهله ووطنه فكان يجب على الذين نفوا عنه التعصب لبلده ان ينظروا اليه من النواحي كلها ، من ناحية حنينه الى تربته ومن ناحية اضطرابه في هذا الحنين حتى يكون حكمهم صادقاً الا انهم لم ينظروا اليه الا من ناحية واحدة ، فأشاروا الى الابيات التي دلت على اضطرابه في الحنين الى الوطن وسكتوا عن الابيات التي تضمنت حنينه اليه فإما ان يكونوا متحـاملين على المتنبي ، وإما انهم لم يقرأوا ديوانه كله ، والأمر الثاني أغرب فكيف يؤلفون في هذا العصر كتاباً في شاعر من الشعراء ولا يقرأون شعره كله .

على انهم لو انصفوا فنظروا الى ابي الطيب في وطنيته اي في حنينه الى تربته من الناحيتين ، واحبوا ان ينقدوه من الناحية التي اشتملت على تغنيه بتربته لوجدوا مجال النقد ذا سعة فان ابا الطيب لم يخلف لنا في شعره صورة التربة التي ألفها ، فلم يحملنا على الحنو على هذه الارض الكريمة التي رويت من دماء آبائنا واجدادنا فلو أحطنا مثلاً في شعر ابي الطيب وهو في مصيفه في حمص بالعاصي من منعطفـات شطوطه ، فحمنا على هذا النهر المنبسط وصوبنا النظر وصعدناه في مروجه وفي جنانه وشممنا نسيم الشيح والقيصوم في البادية التي جال فيها كل مجال لشعرنا حينئذ بفرط الحنو على هذه الارض الكريمة حيث نبتت لنا في كل بقعة من بقاعها اصول دقيقة قوية تذكرنا قبيلنـا وعشيرنا في الماضي .

لو نقدوا ابا الطيب من هذه الناحية ، وقالوا لم يخلف في شعره صورة تجمع أشكال التربة التي الفها والوان هذه التربة لأصابوا في نقدهم بعض الاصابة ولكنهم لم ينقدوه من هذا الوجه وانما جردوه من العاطفة الوطنية تجريداً ، وهذا موضع الاشتطاط ، على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان ابا الطيب لم يخل شعره من اثر للتربة التي مر بها والفها ، ولكن هذا الاثر انما هو اثر اعرابي يوافق ذوق ابي الطيب وعادته في مشابهة الاعراب وهل هو الا ابن البادية ، وربيب القبائل الف الاعراب من حداثة سنه واخذ عنهم اللغة . صحبهم سنين ثم جاء الكوفة و بدوي قح ، نعم لم يخل شعره من اثر للتربة التي الفها فانه كما قال :

احب حمصًا الى خناصرة وكل نفس تحب محياها
وصفت فيها مصيف بادية شتوت بالصحصحان مشتاها

وصف في مصيفه في حمص ومشتاه بالصحصحان نمط عيشته وما هذه العيشة الا عيشة الأعراب :

ان اعشبت روضة رعيناها او ذكرت حلة غزوناها
او عرضت عانة مقزعة صدنا باخرى الجياد اولاها
او عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقراها
والخيل مطرودة وطاردة تجر طول القنا وقصراها
يعجبها قتلها الكماة ولا ينظرها الدهر بعد قتلاها

هذا الذي تركه لنا من آثار مصيفه ومشتاه في حمص والصحصحان وانتم ترون ان هذه الآثار اعرابية ما فيها الا الصيد والا الغزو .

فلننظر الآن في حكمهم على المتنبي من الناحية القومية ، فقد عجبوا منه كيف سمحت له نفسه بمدح العجم والاعاجم ، بعد مدح امراء العرب كسيف الدولة واضرابه ، وبعد تصريحه بكراهية العجم ، لا شك في ان ابا الطيب مدح ملوكاً وامراء لا ينتسبون الى اصل عربي من جملتهم عضد الدولة ومن جملتهم الاستاذ كافور ولكن هل يجوز ان يكون مجرد مدحه لامراء وملوك اعاجم دليلاً على لينه في عروبيته وهوادته في قوميته وعلى الخصوص فأنه لم يجر على شعره في مدائحه فيهم شيء يستلخص منه فضل الاعاجم على العرب او انه طعن على العرب ورفع من مقادير العجم كما كانت تفعل الشعوبية ، فهو لم يمدح الروم والصقالب والبلغار ولا مدح الدمستق وقسطنطين . وانما مدح ملوكاً مسلمين يتكلمون بلغة العرب و يفاخرون بها فان ملوك آل بويه شعروا وروّيت لهم اشعار وكان في خدمتهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الكتاب والوزراء امثال ابي اسحق الصابي وابي القاسم عبد العزيز بن يوسف وابي احمد عبد الرحمن بن الفضل الشيرازي وأبي القاسم علي بن القاسم القاشاني وابن العميد عماد ملك آل بويه والصاحب ابي القاسم وغيرهم ممن كانوا امراء البيان والانشاء وكانت اللغة الفارسية قد غرقت في خضم العربية وكان عضد الدولة نفسه على ما ذكره الثعالبي في يتيمته يتفرغ للادب ويتشاغل بالكتب ويؤثر مجالسة الادباء على منادمة الامراء ويقول شعراً كثيراً قال ابو بكر الخوارزمي :

كان ينادم عضد الدولة بعض الادباء والظرفاء ويحاضر بالاوصاف والتشبيهات ولا يحضر شيء من الطعام والشراب وآلاتهما وغيرهما الا وانشد فيه لنفسه او لغيره شعراً حسناً ، فبينا هو ذات يوم معه على المائدة ينشده كعادته اذ قدمت بَهَطَة فنظر عضدالدولة كالامر اياه بان يصفها فارتج عليه وغلبه سكوت معه خجل فارتجل عضد الدولة وقال :

بهطة تعجز عن وصفها يامدعي الاوصاف بالزور
كأنها في الجام مجلوة لآلئ في ماء كافور

وقد رويت اشعار لابنه تاج الدولة ابي الحسين احمد ولعز الدولة ابي منصور بختيار ولابي العباس خسرو بن فيروز بن ركن الدولة فالمتنبي لم يمدح ملوكاً طعنوا على العربية وانما مدح ملوكاً كانوا يتكلمون بها ويفاخرون وفي اتصاله بهم لم ينس عروبيته ولم يتجرد منها واظن انكم لاتزالون تذكرون قوله في مغاني شعب بوان .

ولكن الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

والنزعة العربية في هذا البيت واضحة فالذي لا تهمه العصبية لقومه لا يستوحش في بلاد العجم وقد كان يستطيع ان يرضي العجم فيقول لهم مثلاً اذا نزل العربي بارضكم فلا يكون غريباً ولكن نفسه العربية أبت الا الوحشة والا الحنين الى منازل دمشق .

وكذلك الاستاذ كافور فقد كانت مجالسه عامرة بالشعراء منهم الانصاري وكانوا يتفاوضون في اللغة والادب حتى ان المتنبي عارض الانصاري بحضرة كافور في قصيدته الميمية التي يقول فيها : (نظر المحب الى الحبيب غرام) ، وقال له : العرب لاتقول اليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غرام وانما العرب تقول له ، فقال له الانصاري : العرب تقول اليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن بعض .

فالملوك الذين تعمر مجالسهم بامثال هذه المجادلات انما هم ملوك لا يكرهون العربية على ما أظن فما في مدح المتنبيّ لهم طعن عليه من الناحية القومية فما كان بحضرتهم يغض من العرب و يتنقصهم .

فالمتنبيّ عربي في اصله ، عربي في عيشته ، عربي في نزعته ؛ وقد صحب الاعراب وخالطهم ولهذه المخالطة آثار في شعره فيجب على الذين ينفون عنه التعصب لوطنه ولقومه ان ينظروا اليه من كل النواحي حتى يكون نقدهم صحيحًا .

دمشق : في ٨ شباط سنة ١٩٣٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net